دراما عباءة الخبير تحقق تكاملية التعليم وأهدافه عبر صيغة مشروع

رقيّة أبو صبح

رقيّة أبو صبح (يسار).

المشروع من سؤال التعلم إلى مساءلة القيم

ما هي أصول مخاوفنا؟ وكيف يمكننا التغلب عليها؟ هل الشكل الخارجي هو أحد مقاييس قبول المجتمع لنا أو رفضنا؟ ما هو التأثير الذي يتركه الآخرون علينا اتجاه معرفته السابقة بمعتقدات أو أفراد آخرين سمعوا عنهم أو قابلوهم؟ هل الشكل الخارجي يجعل من أشخاص مصدر خوف لآخرين؟ كيف يمكننا تغيير فكرة مجتمع عن أشخاص معينين بُنيَ اتجاههم على تصور ما بناء على حكايات وإشاعات دون التحقق منها؟

الوحش، الغولة، المارد، الشبح، والكثير الكثير من الكلمات التي يرددها الأطفال داخل الصف، والتي يزودهم بها المجتمع، بحيث تَبني لديهم تصورات عن الآخر المختلف والمرفوض اجتماعياً بسبب شكله أو تصرفاته غير المقبولة أيضاً. معتقدات وحكايات وكأنها تُوَرّث، وعندما يكبر أطفالنا يكتشفون أنها مجرد خرافات، فإذا أراد طفل أن يخيف زميله، يقول له أنا الوحش، ويغير في ملامح وجهه، أو يقول إن الغول وراء الباب، أو سيعاقبك الشبح ليلاً ولن يدعك تنام. عبارات حين أسمعها أتذكر طفولتي أنا أيضاً حين كنت أحمل تلك المخاوف التي يحملها أطفالي في الصف، والتي – للأسف- ما زلت أحمل رواسبها، ربما لأنني أخذت كلام من هم أكبر مني كمسلمات وغير قابلة للنقد أو للتفكير بها، لكنني اليوم قررت أن أُعيد التفكير بها مجدداً مع أطفالي، وأن أَبني معتقداً جديداً حولها، وأتعلم أنا وإياهم عنها بعمق.

حتى أحقق هذا، بنيت مشروعي التعلّمي بمساعدة زميلتي منال ربيع والمعلمات المجاورات في روضتي على قصة بعنوان «الغولة»؛ وهي من التراث القديم، وتحكي قصة عائلة تسكن الصحراء، ولديها مجموعة من الأطفال الذين يرى كل منهم على حدة شخصاً يدعوه الغولة، حسب ما زُرعت لديه من مخاوف سُربت له من الأفراد المحيطين به. يُقرر كل طفل من الأطفال ألا يخبر بقية إخوته بخصوص ما يشاهده، وبالتالي لا يتشاركون مخاوفهم التي بدأت تكبر، وباتت كأنها تخنقهم ولا يستطيعون التخلص منها.

قصة التعلم كمشروع بين المنهاج والأيديولوجيا المجتمعية

أطفل مشروع المجاورة يعملون على رسم قصة الغولة لاستخدامها في سياق درامي.

انطلقت فكرة المشروع من هنا، وقدمنا الغولة بشكل درامي لتصبح جزءاً من قصة أطفال يعملون كمزارعين امتلكوا الخبرة عبر التطبيق الفعلي للزراعة، حيث قاموا بحراثة قطعة أرض محيطة بالروضة وزراعتها، ثم تخيلوا مزرعتهم، وعبروا عنها بالرسم، وجسدوها على الورق، فاحتوت على مكان يضعون فيه أدواتهم الزراعية، وكل ما يلزمهم في عملهم، فتعلموا من خلال ذلك عن أدوات الزراعة، وأسمائها، وطرق استخدامها. في أحد الأيام، يذهبون للمزرعة كالمعتاد، فيكتشفون أن أدواتهم الزراعية محطمة، وكل شيء تالف.

وتركّز فضول الأطفال واهتمامهم على: من فعل ذلك؟ وبدأوا يفكرون كيف يكتشفون الفاعل. واعتقاداً منهم أنه سيعود مجدداً، قرروا وضع كاميرات مراقبة، وبالفعل التقطوا صوراً، ووجدوا آثار أقدام كبيرة على الأرض، قارنوها بحجم أقدامهم، وتوصلوا إلى أن الفاعل شخص مختلف، كبير جداً في الحجم. ومباشرةً، عكس الأطفال معارفهم ومخاوفهم عبر قولهم إنها الغولة، ووضعوا كل تصوراتهم عنها وعن شكلها من خلال الرسم.

بينما هم منهمكون في سرد قصص من مخيلتهم عن الغولة، تصلهم رسالة، فيكتشفون أنها من الغولة، تعتذر منهم لأنها حاولت استخدام أدواتهم، فتكسرت من غير قصد، وتطلب مساعدتهم في زراعة أرضها لتضمن الطعام لأطفالها اليتامى الذين يخافون الخروج من بيتهم بسبب رفض الناس لهم، وتخوفهم منهم. يقرر الأطفال مساعدتها، يقابلونها ويتعرفون عليها، يصممون لها أدوات زراعية تتناسب مع حجمها، يعلمونها الزراعة بكل مراحلها، وحاجات النبات للنمو، وكيفية الاعتناء به، وهي بالمقابل تقوم بمساعدتهم بالمهمات التي لا يستطيعون القيام بها؛ مثل حفر بئر عميق. يكتشف أهل القرية وجودها، يرفضونها ويطلبون التخلص منها، ولكن الأطفال دافعوا عنها، وأصروا على أنها لا تشكل أي ضرر للسكان، وأنه يجب أن نتقبل الآخرين المختلفين عنا، ولا نحكم عليهم من خلال مظهرهم الخارجي. يقابلون مختار القرية، ويحاورونه، ويحاولون إقناعه.

أطفال يقودون تعلمهم ويبدعون

«قصتنا ... إحنا كنا في دور ... نحن عملنا هذا ... اشتغلنا كفريق» ... عبارات رددها الأطفال على مسامع أمهاتهن اللواتي تمت دعوتهن للمشاركة بمخرجات مشروع أطفالهن الذي تحدثوا عنه وكأنهم يصفون رحلة أو مغامرة قاموا بها في صف تحول إلى أرض حكايتهم.

لقاء أشبه بالاحتفال لي ولأطفالي، امتلأ بنظرات الدهشة التي حملتها أمهاتهم على وجوههم نظير ما كان يتردد على مسامعهن وعلى لسان أطفالهن.

مشاهد كثيرة ملأت المكان حُفِرَت في ذاكرتي، فهناك طفل يشدُّ يد أمه بقوة نحو صورته المعلقة على الحائط، وما أن يصل إليها حتى يبدأ بسرد بطولاته بشغف وحماسة، وكأنه يقول لها إنه لم يعد طفلها الصغير، فهو يمكنه أن يفعل الكثير، وعليها أن تثق بقدراته.

مشهد آخر لطفل التزم الصمت، أمه لم تكف عن سؤاله وهو لم يجبها بشيء سوى صمته، وحينما اقتربت منه وأشرت على الصورة سائلة له عما كان يفعله هنا، يجيب دون تردد وبأدق التفاصيل، وكأنه يريد أن يقول لأمه إن معلمتي هي التي كانت معي في المشروع، ويمكنها فهمي جيداً، وتعرف ما الذي فعلناه سوياً.

مشروع كشف الكثير من القدرات التي امتلكها أطفالي، الذين كانوا بعمر الرابعة، فبات عندي أطفال يفوقون أعمارهم، يشعرون بثقة أكبر اتجاه تعلمهم واتجاه مجتمع الروضة الذي يكبرون في داخله، ليس فقط عبر اكتسابهم المعرفة، بل عبر تملكهم لها كما يتملكون ألعابهم، وتمثلهم لها عبر السرد، وأذكر هنا بعض الأقوال التي تمثلت على لسانهم لتظهر بعضاً مما أود قوله.

أطفال مشروع المجاورة يعملون على رسم قصة الغولة لاستخدامها في سياق درامي.

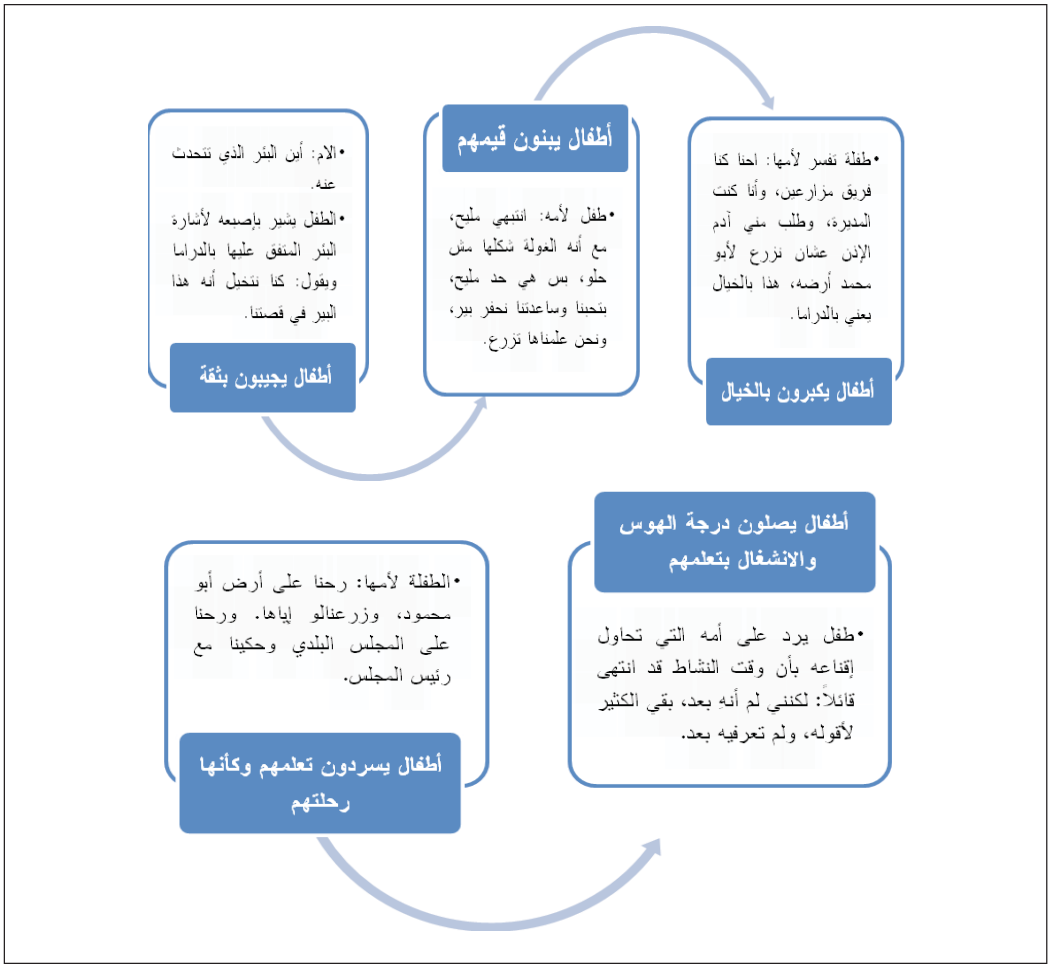

انخراطات تعلمية عُليا للأطفال يحققها المشروع في مهام

أنا هي ملكة الصف، ولا يوجد في الصف من يملك المعلومة غيري، فأحتار في كيف يمكنني أن أقربها أو أوصلها لأطفالي، هل بنشاط أم بلعبة أم بالتكرار أم بالتلقين ...، إلى أن خضت تجربة العمل بالدراما، وتغيرت فكرتي، وبدأت أدرك أنني لست أنا من يملك المعلومة في الصف، وأطفالي ليسوا بورقة بيضاء جاؤوني فارغين، بل جاؤوا محملين بالكثير من المعارف والخبرات، والكثير من الشغف للحياة وللتعلم، جاؤوا لنكتشفها ونختبرها معاً، لنتشاركها من خلال لعبة، أو من خلال النقاش، بل الأهم من خلال الخيال، فبالخيال والدراما حاولوا البحث عن ضالتهم، أطلقوا العنان لمخيلتهم، فتحول صفهم تارة إلى بحر، وتارة أخرى إلى مركبة فضائية، وصاروا يلعبون أدواراً كما لو أنهم علماء، أو مصممو حفلات، أو خبراء أدوية، أو منقذون، فهم دائماً على أتم الاستعداد للمساعدة، وينتظرون دائماً المهمات، نعم المهمات، فهم يريدون العمل والنقاش ووضع

أطفال مشروع المجاورة يعملون على رسم قصة الغولة لاستخدامها في سياق درامي.

الاقتراحات وإيجاد الحلول، وبطريقة غير مباشرة هم يتعلمون مما لديهم، ومما لدى أقرانهم، ومما أستطيع توفيره لهم.

تحول اليوم الدراسي الطويل والممتلئ بالروتين والملل إلى يوم حافل بالخيال والدراما، وإلى تعلم عميق مبني على الانخراطات واللعب معاً، فلم يصبح للتعليم المجزأ مكاناً في صفي، حيث حلّ مكانه التعليم التكاملي الذي يحمل في طياته الكثير من المعارف والمهارات والقيم.

هذا ما يحققه كل مشروع تعلمي مبني بطريقة دراما المشروع (عباءة الخبير)، مشروع تحقق عبر أشكال تعلم متعددة، تتضمن مهام عمل ونتاجات في المعرفة والمهارة والقيم. نعرض هنا صورة عنه كيف تفاعلت وتكاملت في مشروع الغولة والمزارعين.

المشروع في مهام	أفعال وأقوال	انخراطات تعلمية
• استقصاء وحوار • نشاط تعلمي (زراعة في أحواض)	• ماذا نحتاج حتى نزرع؟ • ماذا تحتاج النبتة لتنمو؟ • متى نزرع؟ وكيف؟ • زراعة نباتات وريها.	• لغة • علوم (طبيعة) واستقصاء • تذكر ومعرفة • استخدام أدوات حقيقية • فهم • تمثيلات (رمزي وتجسيدي)
• الانتقال من عالم الواقع إلى عالم الخيال عبر الاتفاق. • رسم الأدوات الزراعية. • عمل قوائم فيها مع عددها. • رسم المؤسسة ومحتوياتها. • اختيار شعار ورقم الهاتف.	• أطفال يشكلون النبتة كيف تنمو وماذا تحتاج لذلك. • أنا بدي اختار الشعار يكون وردة. • تصويت وانتخاب الشعار بعد التصميم.	• إبداع • لغة • فنون (مهارات) • مواطنة • فهم – تحليل وتقييم (صنع قرار) • تمثيلات (تجسيدي- أيقوني – رمزي) • اختيار مفاهيم ووظائف
• ممارسة الخبرة المكتسبة من خلال إنجازهم لمهمة. • حضور الزبون للمؤسسة ليطلب منهم زراعة أرضه. • استقصاء منه عبر الهاتف حول أرضه من حيث (المساحة – نوع المزروعات، طريقة الري)	• ممكن نروح نزرع لأبو محمد لأنك المديرة؟ • بدنا نسألك أرضك كبيرة أو صغيرة عشان نعرف نجيب معنا تراكتور أو لا؟ • الأرض بعيدة لازم نروح في الباص.	• تطبيق عبر صنع روابط والاستنتاج • فهم • تحليل وتركيب عبر توضيح العلاقات • التقويم (صنع قرارات) • منطق رياضي • توضيح علاقات
• أداؤهم للمهمة الأولى وهي زراعة أرض الرجل.	• لازم نستعجل في زراعة الأرض قرب فصل الشتاء والدنيا رح تمطر. • لازم نزرع الأشتال وحدة .. وحدة.	• تحليل وتركيب • تطبيق • علوم • تمثيل تجسيدي • تنبؤ وافتراضات
• بعد أداء المهمة الأولى يعود الأطفال لمؤسستهم ليكتشفوا تحطم أدواتهم. • اكتشفوا آثار أقدام على الأرض ومقارنتها بأرجل أشخاص آخرين.	• مش معقول في حد دمر مزرعتنا وخرب أغراضنا، كيف بدنا نساعد الناس هلا؟ • هدول آثار رجلين أكبر بكثير من رجلينا	• تحليل وتركيب • فهم • مقارنات (منطق رياضي)

• طرحوا حلولاً للمحافظة على مؤسستهم كفكرة الحراسة، وسور كبير حولها، وباب مع قفل، ثم جاءت فكرة الكاميرات.	• لازم نسكر الباب ورانا ونحط مفتاح وقفل كبير. • الحارس بنام بالليل أحسن شي نحط كاميرا تصور. • (طرحت فكرة الكاميرا كحل لمشكلة مفترضة وهي نوم الحارس).	• إبداع • تقويم • فهم • تطبيق • لغة – منطق
• بعد حوار استنتجوا أنها غولة. • تخيل شكلها الخارجي وتجسيده عبر الرسم. • إسقاط خبراتهم السابقة بخصوص مفهوم الغولة وما حملوه من مخاوف وتصورات حولها نقلت إليهم عبر آخرين.	• هاي أكيد مش زينا، هاي أكيد غولة. • شعرها أسود ومكنفش، وثمها كبير كتير. • رموشها طوال بخوفوا. • عيونها قد راس الواحد فينا. • هي إلها 5 أصابع مثلنا، بس كبار، وأظافرها طوال. • أسنانها خربانين ومسوسين لازم أحط لها فرشاة أسنان.	• فهم • تحليل وتركيب • تقويم • إبداع • لغة ومنطق • تمثيل أيقوني وتجسيدي
• تصلهم رسالة من الغولة يقرأونها ويفهمونها ويحللونها.	• بعد قراءة الرسالة يسرد الأطفال فهمهم للرسالة «أنا آسفة وبعتذر، هيك بتقول الغولة، يعني مش قصدها تكسر أدواتنا. • أكيد جوزها رح يرجع – رح يجيب لهم ملابس وأكل. • الغولة عندها أولاد صغار.	• لغة • فهم • تطبيق • تحليل • تقويم • تمثيل رمزي
• الرد عليها برسالة أخرى يطلبون فيها مقابلتها. • ترد الغولة بالموافقة مع طرح مشكلة زيارتهم ليلاً لأنها تخاف الناس.	• يقرر الأطفال (بدنا نقابلها) • لازم نكتب بآخر الرسالة اسمنا إنه نحن "فريق المزارعين"	• إبداع • لغة
• يحضرون أسئلة المقابلة وكيفية التصرف مع الغرباء. • يقابلون الغولة.	• بس نشوفها لازم نحكي معها بصوت واطي، ونحكي لها السلام عليكم.	
• يقررون مساعدتها • يصنعون لها أدوات زراعية تتناسب مع حجمها. • يعلمونها الزراعة (ينقلون لها خبرتهم). • يقترحون حلولاً لمشكلة الري بسبب بعد الأرض عن النهر.	• لازم نزرع لها حتى يأكلوا أولادها، لازم نساعدها. • لازم نقيس طول إيديها عشان نعمل أدوات على قدهم. • مقارنة بين طول إيديها والأدوات. • طفلة تعد الأقلام لمقارنتها بين عددها وعدد الأخشاب التي استخدمت في القياس.	• منطق رياضي (مقارنات) • فهم • تطبيق • تحليل وتركيب • تقويم • تمثيل أيقوني

• يعلمونها الزراعة (ينقلون لها خبرتهم). • يقترحون حلولاً لمشكلة الري بسبب بعد الأرض عن النهر.	• بدنا نعلمك كيف تزرعي أرضك. • لازم ترفعي إيدك فوق وتنزليها لتحت عشان تنكشي منيح. • كيف بدنا ننقل المي من البئر للمزرعة وهي المزرعة بعيدة؟ • تقيس المسافة بين الأرض والبئر بالقدم كأداة قياس. • يسجلون مقدار المسافة بين البئر والنهر.	• تمثيل تجسيدي • إبداع (حل مشكلات) • فهم • تطبيق • منطق رياضي • تحليل وتركيب • تقويم
• اعتراض سكان القرية على وجود الغولة. • يقابل الأطفال رئيس المجلس القروي ويحاورونه.	• يا رئيس المجلس هي ما بتئذينا وساعدتنا • إلها إيدين كبار وبتقدر تشتغل بسرعة وتساعدنا بالقرية لما نحتاجها. • أولادها بحبوا شكلها هيك. • حتى لو وجهها بشع هي منيحة وما بتئذي.	• لغة – تفاوض وحوار • مهارات إقناع • إبداع • تقويم • فهم • تحليل • استنتاج • قيم

التجربة بين التكون المهني والشخصي والاجتماعي

لم يكن مشروع «المزارعين والغولة» هو المشروع الأول لي، ولن يكون الأخير، لكن كل مشروع كنت أعمل عليه مع أطفالي كان يضيف لي الكثير على جميع المستويات، فعلى المستوى المعرفي، كان يعمق لدي الكثير من المفاهيم والمعاني الدرامية التي كانت تلتبس أحياناً عليّ، ويمكنني أكثر من التخطيط والقدرة على التطبيق، كما مكنني أكثر من اكتشاف أطفالي وما يمتلكونه من قدرات ومعارف وإمكانيات، وجعلني أقرب إليهم، وكذلك تمكنت من اكتساب قدرات أعلى في إدارة الصف وحل المشكلات بطرق أكثر حنكة وإبداعية.

أما على الصعيد الاجتماعي، فنقل خبرتي إلى معلمة أخرى تعمل معي داخل غرفة الصف هو بحد ذاته يُعَد تجربة نوعية أضافت لي الكثير، تجربة دفعتني لأعطي كل ما لديّ، وأبقى دائمة البحث والسؤال حتى أستطيع أن أفيدها بكل ما أمتلك من معارف أو مهارات، تجربة بنت بيننا علاقة صداقة وألفة وفهم مشترك، تسعى إلى تحقيق هدف واحد مركزه الطفل.

لم أعد أفكر بالدراما كمشروع وخيال ولعب أدوار ومهام فحسب، بل هي أعمق بكثير من ذلك، هي تحول وتغيير، هي اندهاش ورغبة كبيران يدفعانني نحو التجربة مراراً وتكرارا، هي مسؤولية كبيرة تقع على عاتقنا كمربيات لمرحلة من أهم مراحل تكوين الإنسان، هي عملية تشاركية استكشافية بين مربية وأطفالها معاً، رفيقا درب، إذا نقص أحدهما لن تكتمل الرحلة، ولن يحدث الاستكشاف، ولن نصل إلى الدهشة.

دهشتي من أطفالي الذين يظهر عليهم انشغالهم المستمر بالدراما وأحداثها، ونقل ما يخوضونه من تجربة إلى بيوتهم وأسرهم، بتفضيل حصة الدراما على أي حصص أخرى، وهوسهم المستمر بمواصلة العمل على المشروع، وعدم رغبتهم في ترك الروضة وإنهاء حصة الدراما. كذلك الحلول الإبداعية التي يعبّرون عنها بطرق عدة؛ إما بالرسم، وأما بالحوار، وأما بالصور الثابتة المعبر عنها بأجسادهم الصغيرة، إضافة إلى دهشتي من العملية كمنهجية جديدة، تمكنت من خلالها أن أعلّم أطفالي ما هو أبعد مما يحمله المنهاج إليهم، تعلم فيه حياة.

روضة سنابل الإيمان – بيت إجزا